الطاقية

بقلم: محمود تيمور

عند ما استفقت من غفوة القيلولة ، لم أجد من نفسي رغبة فى مبارحة الدار ، فقد كان عملى صباح اليوم فى الوزارة شـــاقا اجهدنى ، فآثرت الاعتكاف فى امسيتى ، أنشد الراحة والجمام .

وكنت احتفظ بصندوق اطلقت عليه اسم « صندوق الذكريات » ، جمعت فيه اشتاتا من الصور والتذكارات من مخلفات الماضي ، أحتفى بها واعتز .

وطاب لى ان اقصد الى الصندوق ، وان اقلب فى محتوياته ، وتعلقت نظرتى اتفاقـــا بلفيفة لطيفة ناعمة الملمس ، معقودة بشريط من حرير ، فتناولتها بين يدى أميط عنها الغبار ، ثم الفيتنى احل الشريط من حولها ، وابسط مافيها ، فاذا هو « طاقية » ... طاقية غلام ، يشهد مظهرها الساذج وما فيها من وشي زاهى الالوان بأنها بضاعة ريفية الطابع ، لعصر سلف .

وابهجنى مرأى « الطاقية » ، فانتحيت بها ركنا فى الحجرة ، اتفحصهـــا مليا ، وانشر ذكرياتى معها من طـــوايا الزمن البعيد .

وتواردت المشاهد على مخيلتى ...

ورايتنى امام « ســـتوتة » ... « ستوتة » الصغيرة ، وهى تمد يدها على استحياء بتلك « الطاقية » ، هدية تتودد بها الى فى يوم الرحيل . ومالبثت ان مالت على اذنى تقول : انها ابتاعتها من « سوق الأربعاء » وادت ثمنها مما اقتصدته من نقودها الخاصة .

وفى حيرة وارتبـــاك ، تلقيت منهـــا « الطاقية » ، وما اذكر اشـــكرت لها صنيعهـــا بى ، ام ظلت انامل تعبث « بالطاقية » دون ان انبس بقول .

كنت صبيا ادنو من العاشرة ، على حين كانت « ستوتة » تصغرنى بنحـــو عامين ، وقد مكثت فى صـــحبتها فى قرية « السلامية » شهرا ما كان اطيبه واحلاه ، حيث جمعتنا دار ابيها « الحاج ابو صالح » ، وهو رجل من اواســـط القوم ، ميسور الحال ، يحيا حياة الريفى الأصيل ، وبينه وبين ابى أواصر ود . وكان الربيع يومئذ قد اوشك ان ينصرم ، وانا اعانى هزالا ينذر بسوء المصـــير ، فاستجاب ابى لمشورة الطبيب ان يبعث بى الى الريف ، لأنعم فيه بجو طلق ، ومنظر بهيج ، وغذاء طيب مرىء .

ولم يتخل عنى ابى فى هذه السفرة ، فركبنا القطار الى محطة « السلامية » ، وبلغناها ساعة الأصيل ، فالفينا « الحاج ابو صالح » ينتظر قدومنا ، وقد اعـــد لنا ركائب من الحمير يحرسها نفر من الغلمان ، وسرعان ما امتطيت ركوبتى ،

واد مرح ممتلئ . وسرنا فى طريق ترب ، تحف به حقول شاسعة على مد البصر ، والهواء رخى عبق برائحة الزروع .

ولم يطل بنا المسير أكثر من نصف ساعة ، فاستقبلتنا قرية « اسلامية » ذات الدور المتخاضعة ، والجميزات العتيقة ، وذلك الجدول الضيق تتهادى على صفحته وعلى حافاته اسراب من الاوز والبط .

ثم جاز موكبنا بدرب ملتو حافل بكومات التراب وبرك الماء ، والاطفال انصاف عراة يتواثبون هنا وهنالك متضاحكين .

واخيرا اوفينا على الدار ، فكان احتفاء الأهل بنا بالغا الغاية ، وتجلت الاريحية الريفية فيما أعدوه انا من مأوى ، وفيما حبونا به من طعام وشراب .

وفى ضحوة غد زايل أبى القرية ،بعد أن تركنى وديعة عند « الحاج ابو صالح » واهل بيته ، فأحسست تهيبا ووحشة ، وجلست وحيدا على دكة بجوار باب الدار ارقب السابلة .

وما هى الا ان شعرت بيد تربت كتفى ، يد « ستوتة » ابنة « الحاج ابو صالح » ، وكنت قد رايتها البارحة ، وقضيت معها قليلا من الوقت نتعارف وهى صبية سمراء ، بشرتها فى لون النحاس المصقول ، وعينها خضراء صافية تماثل لون البرسيم فى ابانه .

قالت لى « ستوتة » ويدها على كتفى ، والابتسامة تسطع على محياها :

تعال نلعب .

وامسكت بذراعى ، فنهضت معها ، وخطونا فى الدروب الترابة الملتوية ، فسألتها :

الى اين نذهب ؟

— الى الجرن .

— الجرن ؟

— نعم ... الجرن ... الا تعرفه ؟

وامضينا ساعة فى الجرن ، راكبين النوارج مع الفلاحين ، ندرس القمح ، ويعلو صياحنا على خوار الثيران ، نحثها على استكمال دوراتها المألوفة . ولم نكتف بهذا كله ، فتركنا الجرن الى ارجاء القرية ، نتسلق الجميز الهرم المجعد السيقان ، وطعمنا من ثماره المعسولة . وخاضت اقدامنا فى ماء الترعة الضحل ، ثم جلنا على حافة الترعة نصطاد صغار السمك ، ونلقى به الى الكلاب الجائعة ، ثم اجتمعنا مع الرفاق نلعب « السيجة » ، وانطلقنا فى الحقول نجمع أعواد « السريس » ، واخيرا قعدنا الى « الزاوية » وتطلعنا الى « الكتاب » المهدم بجوارها ، وقد التفت فيه حلقة الغلمان يقرءون ويكتبون . وهكذا قضيت النهار مع « ستوتة » فرحا نشيطا ، تقر عينى بمشاهد طريفة .

كانت تجتاحنى هيجة عارمة اطاحت بتهيبى ووحشتى ، فلم يكد الليل يقبل حتى صرت و « ستوتة » الفين متلازمين ... ولما أزف موعد النوم اعتلينا معا سطح الفرن ، فقد كان هو المرقد المفضل فى الدار ، بل فى كل دار ريفية ، وتمددت « الحاجة أم صالح » تفصل بيننا كما كان الحسام الماضي يفصل فى النوم بين « الشاطر حسن » و « ست الحسن والجمال » فى أساطير الأولين .

ما اعذب تلك الليالى التى نمت فيها فوق سطح الفرن ، قريبا من «ستوتة» . كان الدفء الذى ينبعث منه يشيع فى

أوصالى ، فيبعث فيها خدرا اذيذا يثير فى نفسي غرائب احاسيس .

وطـــابت لى فى تلك الفترة حياة الطلاقة والمراح ، حياة الفطرة بين قوم لايعرفون تكاليف المدنية واوضـــاعها الخانقة ، و « ستوتة » الصـــغيرة رائدتى فى مغامراتنا اليومية ، لها فى كل يوم كشف جديد ، أو لعبة لم يسبق لى بها عهد .

وشاء رب الدار ان يزيد فى الحفاوة بى ، فأقام فى امسية رائقة حفل سمر ، تميز بطابعه الريفى الأصيل .

واحتوانا فناء الدار ، فتحلقنا ... والمشاهد تتوالى امام عيوننا ، مشـــاهد مفرطة السذاجة ، نســـتقبلها بفرحـــة غامرة ، لاتكل ايدينا من التصـــفيق ، ولا تفتر حناجرنا عن الصياح .

وما زلت اذكر شخصـــية المهرج ، وقد طلا وجهه بالدقيق ، وامتطى جريدة طويلة كان يدعوها الفرس المطهـــم ، وشخصية الزمار الذى يطلق انغامه ، وخصره يتلوى ، وراسه يتطوح ، فيدور زر طرطوره الطويل دورات سراعا على ايقاع المزمار . وهناك الطبال بكرشه المنبعجة ، وهو يتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، منشـــدا مع المرددين من الصبية ، نشـــيده الموحد ، يعيده بين الفينة والفينة :

« ان لاقاكم حبيبى
سلموا لى عليه »

وفى ختام العـــرض اجتمع المهذون فى الحلقة ، واشتركوا فى رقصـــة مائجة ، وقرع الطبل يدوى كأنه عزيف الجن ، فسرت فى أوصالى حماسة ، واخذت بيد « ســـتوته » ودفعت بهـــا الى البهرة ، وجعلنا نسهم مع اللاعبين فى الرقص والتهريج .

ولما انفض العرض ، دعانى رب الدار

الى ســـــماط ريفى طـــريف ، مده فى الفناء ... كان الحصير مبسوطا على الارض ، وعليه رصت صحاف الثريد وقعاب القشدة ، وصـــــوانى الفطير الرحـــــراح ، وما الى ذلك من مآكل فلاحية صميمة . فجلسنا متربعـــين ، وبيننا فرقة اللاعبين ، وجعلنا نصيب طغامنا الشهى فى شـــغف ، وحلا لنا السمر من بعد الى هزيع من الليل .

***

وعدت الى « الطاقية » اقلبهـــا بين يدى ، وظل ابتسامة يتخـــــايل على وجهى . لقد بقيت قابعة فى« صندوق الذكـــريات » نيفا وثلاثين عاما ، منذ كانت زيارتى لقرية « السلامية » ، تلك الزيارة التى كانت الأولى والأخيرة .

وكرت الأيام ...

كرت تبدل من مظاهر الحياة ماتبدل، ولفنا الزمن ، ومرت بنا أحداث تباعـــد بيننا وبين مواطن الذكريات ، وتنســـج عليها خيوط النسيان . ولكن هل الى ابتعاث الماضي من سبيل ، أو بالاحرى الا من وسيلة نخادع بها انفســـــنا ، فنحاول أن نحيا بين صور ذلك الماضي الحبيب على اى وجه يكون ؟

ومن اعماق نفسي ثار بى حنين متضرم الى رؤية قرية « السلامية » وما ضمت من اماكن ومشاهد وأناس .

وما هى الا ان رف امام عينى طيف « ستوتة » مشرقة فى جلبابها الاحمر الفضفاض ، زاهية بعصـــــابتها ذات الهداب الهفهاف، وهى تلوح لى بذراعها تدعونى أن اقبل عليها .

وعلى الفور تجلت لى صفحات من ايامى الحاضرة كئيبة راكدة ، وخيل الى انى لست اكثر من دابة مكدودة تنوء بحملها الثقيل ، وضربات العصا تلهب ظهرها فى غير اشفاق .

وانقدت بين جوانحى ثورة ســـخط على حياتى التى اكابدهـــا ، بل على الحياة نفسها من حولى ... اليس من حقى ان التمس التحرر من اغلال صعاب يكبلنى بها العيش فى المدينة ؟ اما آن لى ان استمتع بعض وقت بعيشة البداوة فى بساطة وسذاجة ، نائيا عن مشكلات العقل والتدبير والحساب متفيئا ظـــلال الغفلة والسكينة والاستخفاف ؟

لم لا اهرب الى الريف ، اقضي فيه بضعة ايام ؟

لم لا افر الى « السلامية » ، القرية الحبيبة ، اتذوق فيهـــا حلاوة الماضي الرخى ؟

لا اذهب غدا الى مقـــر عملى ، فسأتخذ طريقى الى دار « الحـــاج ابو صالح » الى « السلامية » .

ذلك مابنيت عليه عزمى .

وفى أصيل غدى ، كنت ازايل القطار، ومعى حقيبتى الصغيرة تحوى قليلا من المتاع ، وشكولا من الهدايا ، وتحسست جيبى ، فالفيت « الطاقية » فى مكانهـــا الذى ائتمنته غليها ، وشخصـــت عينى الى مبنى المحطة ، اتأمله وانا اراجـــع نفسي : أترانى اخطأت القصد ؟ اهذى محطة « السلامية » حقا ؟ ان صـــورتها فى ذاكـــرتى تمثل بناء اغبـــر متداعيا لاتنسيق فيه ، أما ما اشهده الســـاعة فهو مبنى ناصع البياض ، عصـــرى الهندسة ، وكدت الحق بالقطار ، لولا ان اخـــذت عينى لافتة اقيمت على الرصيف ، تهتف بالزوار :

مرحبا بكم فى « السلامية » !

ولاحت فى خاطرى لافتات على هـــذا النحو ، تواجه زوار المطارات ومداخـــل العواصم والمدن الكبرى .

وقفت امام لافتة « السلامية » اتأملها

مليا ، وقد سنحت على فمى ابتسامة غامضة .

ودفعت بخطاى اجتاز المحطة .

والقيت ببصرى حوالى ، اتفقد مربط الحمير ... فلم ار الا سيارة عامة يهرول اليها الناس متقافزين متزاحمين بالمناكب .

ومر على مقربة منى شاب ريفى ، مبسوط القامة ، متالق النظر ، فاستوقفته اقول :

ـ اين مربط الحمير ، ولا تؤاخذنى ياحضرة ؟

فاجابنى مبتسما :

ـ ليس هنا مربط للحمير او للبغال ... ولا تؤاخذنى يا استاذ !

ـ اريد ان اذهب الى قرية « السلامية » ...

ـ تستطيع ان تذهب اليها راكبا السيارة العامة ، وهناك سيارات خاصة تحملك اليها ان رغبت ، فانتظر احداها هنا حيث انت ...

ـ لم احضر لأركب سيارات عامة او خاصة ... انا شبعان منها ... اريد ان امتطى حمارا ... اريد ان استمتع بركوب الحمير ...

فاتسعت ابتسامة الفتى ، وقال :

ـ ليس للحمير المأجورة هنا وجود ...

ـ امر عجيب ... هل اقفر الريف من الحمير ياحضرة ؟

ـ لم تعد تتخذ وسيلة للانتقال ، فقد حلت محلها السيارات .

وتركنى وهو يتضاحك ، ووقفت حيران هنيهة ...

واخيرا مر بى فلاح مزهو على ظهر دابته ، ومن حسن حظى ان الدابة كانت من جنس الحمير ... فاشرت اليه استوقفه ، وما ان دنوت منه حتى قلت :

ـ اريد الوصول الى قرية « السلامية » ... كم تطلب من اجر على المشوار ؟

فرمقنى بطرف عينه ، وهو معتل حماره ، لم ينزل عنه ، وهمهم :

ـ انا لا اؤجر حمارى للركوب ... يا افندم !

وهم ان يتابع سيره ، فامسكت به اقول :

ـ سأعطيك اجرة سخية ترضي بها ...

ولم اتوان فى اخراج قطعة فضية كبيرة ، وانا اواصل الحديث :

ـ هاكها ...

فرمق الرجل القطعة فى يدى لحظات ، ثم مد يده قائلا :

ـ هاتها ...

ونزل عن الدابة ، فما اسرع ان امتطيتها .

وسار بى الحمار الهوينى ، وصاحبه يتبعه فى تخطر ، كأنما هو فى نزهة ، وكان ضنينا بالكلام ، على محياه خيلاء . فاخليته لشأنه ، وجعلت اسرح الطرف حوالى فى الحقول المترامية ، واستنشي هواء الأصيل المشبع برائحة الزروع . بيد ان السيارات عامة وخاصة ، كانت تجوز بنا كالزوابع الهوج ، تملأ الجو غبرة ، وتصم الآذان بما لها من صفير ارعن ، وضجة شعواء .

وواصلنا سيرنا الهين ، وقد اخذت الشمس تنحدر المغيب ، وتبدى لى قرصها المتوهج من بين النخيل يبعث الينا تحية المساء .

وتراءت لى مجموعة من الدور الريفية على طراز عصرى مستحدث ، استرعت انتباهى بجمال تنسيقها ، وطرافة هندستها ، فملت ببصرى الى رفيقى الصامت المتخطر اسأله :

ـ ما اسم هذه القرية ؟

فأجابنى وهو يرمى ببصره أمامه فى غير مبالاة :

ـ انها « السلامية » ... القرية التى تبغيها .

فعجلت قائلا :

ـ أواثق انت ؟

فحدجنى بنظرة جافية ، وقال :

ـ انا من سكان البقعة يا افندم ...

ـ ولكن ... ياحضرة ...

والفيته يأخذ بزمام الحمار يقفه ، وقال فى نبرة حاسمة :

ـ تفضل ... انزل ... لقد وصلنا ...

ونزلت عن الدابة ، وفى يدى حقيبتى ، وقلت مهمهما :

ـ لم تكن القرية على هذا المظهر فيما مضى ...

فقال وقد ركب دابته :

ـ الدنيا تغيرت يا افندم ...

ولكز خاصرة الدابة ، فانطلقت به تعدو ...

وبقيت وحيدا على حافة الطريق ، اتوسم القرية فى اعجاب لا يخلو من وحشة . لقد احسست على الرغم منى بشعور ضياع ، وكأننى قد ضللت السبيل .

ومر بى شخص عارى الرأس ، يبدو من ملابسه الحضرية انه من اهل المدن ، ولاحظ على الفور أنى غريب شبه تائه ، فدنا منى يقول :

ـ ابحث عن شىء ياسيد ؟

ـ ابحث عن قرية « السلامية » ...

فقال متلطفا :

ـ انها أمامك .

ـ أتكون قد تغيرت ملامحها الى هذا الحد ؟ اكاد انكرها

ـ انت على حق . لقد رأيت معالم القرية القديمة ، وانشئت عن كثب منها قرية جديدة عمرها عام واحد ... انها قرية نموذجية ... تجربة فريدة من تجارب العصر الحاضر .

فاذت بالصمت أفكر ، ثم انثنيت اسأله :

ـ واهلها ... سكانها الأصليون ؟

ـ انهم فيها دون شك .

فأجزلت له الشكر ، محييا اياه ، فودعنى ومضى لطيته .

وظللت انا فى مكانى لا ابرحه ، وكانت طلائع العشية قد احتلت ارجاء الافق تزيدنى شعورا بالوحشة والاغتراب .

وهاجت بى الخواطر والذكريات .

مالى وللقرية النموذجية بحسن تخطيطها وتنسيقها وما تحويه من مظاهر حضرية الاقة ؟

لقد جئت اجتلى معالم القرية القديمة كما هى ببساطتها وسذاجتها وجمالها الطبيعى ، لابرقشة ولا زخرف .

كلا ... لن يكون لى فى هذا البلد مقام ... سأعود على الفور الى « القاهرة » .

واعتزمت أن اركب أول سيارة قادمة تنقلنى الى المحطة .

وبينما انا فى وقفتى اترقب ، اذ سطعت الانوار بغتة ، تبدد غاشية الظلمة ، واذهلنى انها انوار كهربية ، واستقرت عينى على القرية ، فاذا هى تسبح فى أضواء ... واستبانت لى زمر من الناس يتوافدون عليها،وهم يتصايحون ويتضاحكون . ولم يمض طويل وقت حتى اشتدت زحمة الوافدين وتعالت منهم ضجة .

وما هى الا ان تجاوبت انحاء الفضاء بصوت جهورى منبعث من « مجهار »

يلقى بأقوال متتابعة . ليست واضحة النبرات ، فهمت منها انها برنامج لحفل يعدونه ، وملت على شـــاب فى حلة مهندمة ، يسير صوب القرية ، فقلت له :

ـــ ايحتفلـــون بليلة عـــرس فى « السلامية » ؟

فتضاحك يجيب :

ـــ نعم ، وانها لليلة عرســـها ...

عرس القرية نفسها !

ـــ عرس القرية ؟

ـــ فى مثل هذا اليوم من عـــام مضي ، دشن المحافظ القرية الجديدة ، وفتـــح ابوابها لمن يعمرونها . اننا نحتفل الليلة بعيد ميلادها الاول .

ـــ أانت من سكانها ؟

ـــ انى طالب فى معهدها الزراعى .

فهمهمت اردد :

ـــ معهدها الزراعى ؟

وتراءت فى مخيلتى على الفور صورة لم انسها لطرافتها ، صورة « كتـــاب القرية » فى العهد السالف ، وكان هو المعهد الوحيد الذى يتلقى فيه الصـــبية كل مايتلقـــونه من تعليم ... مبادىء القراءة والكتابة ، ولطالما طرقته مـــع « ستوتة » فى جولاتنا اليومية ، فـــاذا هو حيطان من اللبن متصدعة يصـــل بينها سقف من فروع الاشجار العتيقة ، وفى صدره فقيه حطمته السنون ، يتبوأ دكة خشبية ، ومن حواليه تنبعث اصوات الاطفال متربعين على الارض ، وهـــو يتعهدهم بالدرس والتلقين ، وبين الحين والحين يلوح لهم فى يده اليسرى بعصـــا من جريد ، أما يده اليمنى فهى فى ذهاب واوبة بين فمه وصحفة الطعام ، وعيون تلامذته محملقة فيه بنظرات جائعـــة منهومة ، وآذانهم غـــافلة عن ســـماع مايقول .

و تبهني صـــوت الطـــالب الزراعى يقول :

ـــ لاتؤاخـــذنى ، انى ذاهـــب الى الحفلة ...

فهززت يده هزة الشكر .

وتوالى الناس فرادى وجماعـــات الى « السلامية » ، واسترسل « المجهار » يواصل اذاعته فى حماس شديد،وازدادت الاضواء من سطوع ، وارتفعت أنغـــام الموسيقى تملأ النفس من بهجة وايناس .

وجعلت القى لما حـــولى ســـمعى وبالى ...

ووجدت قدمى تنساق بى نحو مدخل القرية ، وجرفنى التيار يطـــوينى فى جوفه ، واذا أنا فى ساحة قد أعـــدت على غرار ساحات الملاعب الشـــعبية « السيرك » : حلقة فسيحة نصبت فيها آلات ومعدات ، ورصت حولها المقاعد ، وقد أخذ الجمهور يشغلها .

سرت كالتائه يدفـــع بى الناس يمنة ويسرة ، وقد اختلط على الامـــر ، فلم أعد أدرى ما انا فاعل ؟ أ ابحث عن مقعد استريح بالجلوس عليه ، واشـــهد منه احتفال الليل ، أم أعود ادراجـــى الى « القاهرة » ؟ وانتهى بى المطـــاف الى احد الابواب ، ورايتنى امام شـــخص يرتدى حلة شبيهة بحلة الكشـــافة ، يلف على ذراعه شريطا ابيض عريضـــا محلى بشارات ملونة ، فما شككت انه من اصحاب النفوذ فى الحفل ، فتقدمت اليه احييه ، فرد تحيتى فى أدب ، فقلت له :

ـــ أنا غريب عن القرية ، قدمت عليها أزور بعض المعارف ، فهل لى ان أعلم اين تســـكن اســـرة « الحـــاج أبو صالح » ؟

ـــ لن تجد الليلة أحدا فى داره .اهل القرية اما بين النظارة يتفرجون ، واما بين جوقة الفنانين يتأهبون للتمثيل .

— الا تستطيع ان تعيننى على ان القى واحدا من تلك الاسرة ؟

— من العسير عليك ان تجد ضالتك بين المتفرجين ، وهم حشد كما ترى كبير . وقد يسعفك الحظ اذا بحثت هنا بين جماعة الفنانين . . . تفضل . . . ادخل . . . ادخل . . .

وفسح لى ، فدخلت . . . وواجهنى على الفور هرج ومرج ، زمر من الفتيان والفتيات فى غدو ورواح ، يتصايحون ويتضاحكون ، وهم رافلون فى ثياب زاهية بهيجة ، مختلفة الشكول والالوان .

فانتحيت ركنا اشهد منه مايدور حولى ، وبيدى حقيبتى الصغيرة ، تدل على انى زائر غريب . وكلما جاز بى شخص ، حاولت ان استوقفه ، ولكن ضاعت محاولاتى سدى ، فلم يعرنى احد بعض التفات ، واحسب انهم ظنوا انى من عمال المسرح ، او من مساعدى التصوير والاخراج . . .

ونالنى ضيق ، وهممت ان ابارح المكان ، فاذا عينى تتصيد على حين بغتة وجها اسمر فى لون النحاس المصقول ، بعينين خضراوين تماثلان فى صفائهما لون البرسيم فى اباته .

وانطلقت من حلقى صيحة .

— « ستوتة » !

والتفتت نحوى صاحبة الوجه النحاسي والعينين الخضراوين ، فهرعت اليها مهتاجا ، وسمعتها تقول مشدوهة :

— من تريد ؟

فأجبت راعش الصوت :

— اريد « ستوتة » . . . «ستوتة» . . .

فقالت فى صوت هادىء :

— لست « ستوتة » . . .

— من تكونين اذن ؟

— اسمى « فيفى » .

— و « ستوتة » بنت « الحاج ابو صالح » ؟

فحملقت الى بعينيها تحاول استبطان افكارى ، ثم قالت فى بساطة :

— لعلك تعنى امى !

— هل انت ابنة « ستوتة » . . . ؟ هل جدك هو « الحاج ابو صالح » ؟

— نعم . . .

فقلت ، وانا اعالج ان املك مشاعرى ، واستعيد هدوئى :

— حقا لا يمكن ان يكون الامر غير ذاك . . . معذرة !

— الا تفصح عما تريد ؟

— جئت الى « السلامية » لازور الاسرة ، فقد نعمت بضيافتها شهرا كاملا منذ . . . منذ . . .

واعتصرت جبهتى اعد السنين ، ثم ابتسمت اكمل قولى :

— منذ ثلاثين عاما او اكثر . . .

فتضاحكت « فيفى » تردد :

اكثر من ثلاثين عاما . . .

— هذا هو الواقع . . . والآن وقد عثرت عليك ، الا ترشدينى الى دار الاسرة ازورها واجدد العهد معها ؟

— اذهب معك بكل سرور . . . انتظر حتى ينتهى الحفل . . . ساشترك فى مشاهد العرض .

— وهل القى فى الدار « ستوتة » و « الحاج ابو صالح » ؟

فنكست راسها تقول :

— كلا ، لقد ذهبا الى رحمة الله !

ومرت برهة ، وكلانا صامت خاشع البصر .

ثم سموت براسي اليها اقول :

— والفرن . . . الا استطيع ان اقضي ابلتى عليه ؟ . . . لا انسي الليالى الماضية التى قضيتها نائما فوقه . . .

فتخايل على وجهها طيف ابتسام ، وقالت :

لافرن الآن فى الدار ... بل ليس فى دور القرية الجديدة فرن واحد !

فتساءلت دهشا :

ـ وكيف تحصلون على خبزكم اذن ؟

فاتسعت ابتسامتها ، وقالت :

ـ من مخبز الجمعية التعاونية .

ـ امر عجيب !

ـ بل امر طبيعى ...

وانسرحت بى الافكار لحظات اهيم فى آفاق الماضي ، مستعيدا صوره واطيافه ، ثم انبعثت اقص على «فيفى» ما اعرفه عن « السلامية » فى عهدها الغابر وما كان فيها من اوضاع العيش ومرافق الحياة .

وافضت فى الحديث مشبوب العاطفة ، راويا لها كيف كانت امها « ستوتة » رائدتى فى جولاتنا اللاهية العابثة ، وكيف كنت سعيدا بريادتها .

وما اتممت حديثى حتى انبرت تقول :

ـ اخشي ان تكون زيارتك اليوم « للسلامية » لاتحقق ما هفوت اليه .

فنظرت اليها ، فطالعتنى عيناها الخضراوان ، وقد تألقت فيهما حيوية دافقة . فقلت على استحياء :

ـ كيف يكون ذلك وقد سعدت بمرآك ؟

فأخذت تسترسل فى حديث حماسي ، تصف القرية فى عهدها الجديد وما شاع فيها من اسباب الرخاء والرفاهية ، وما شمل اهلها من تطور اجتماعى . وكنت انصت لها كل الانصات ، وانا مأخوذ بنغمة صوتها الساحر .

واخيرا قالت :

ـ لقد كانت امى رائدتك فيما سلف ، فهلا رضيت بى اليوم رائدة لك ، اجول معك فى القرية الجديدة ، اريك مفاتنها ؟

فأجبت فى اقبال :

ـ ايس احب الى من ذلك .

وزعق « المجهار » فى تلك اللحظة ، يعلن ان بدء الحفل وشيك . وان على كل امرىء ان يأخذ مجلسه ، فقلت :

ـ حان الوقت لابحث عن مكان لى وسط هذا الزحام ...

فأسرعت تقول :

ـ ان مكانك بجوارى ... ستلازمنى طول الوقت ... لقد بدأت ريادتى لك منذ اللحظة ...

ـ كيف يكون ذلك ، وانت من فرقة الفنانين الذين يشتركون فى العرض ؟

ـ اطمئن ... هذا لايغير من الامر شيئا ... اعلم ان لكل فتاة حق اختيار زميلها فى مشاهد العرض ... وقد اخترتك ... انتظرنى هنا فساعود بعد قليل ...

واجتذبت منى الحقيبة وهى تقول :

ـ ساحفظها لك فى مستودع الملابس، حتى ينتهى الحفل .

فتركتها تفعل ، وقد انعقد لسانى ، وملكتنى حيرة .

ولم تطل غيبة « فيفى » فعادت وفى يدها لفيفة ، سرعان مابسطتها امامى ، فاذا هى « زعبوط » من المبتكرات الحديثة ، مخطط بألوان زاهية . وما عتمت ان طرحته على منكبى ، وطفقت تسويه على جسدى . ثم مضت تكركر فى الضحك ، وهى تردد :

ـ فلاح عصرى ، طراز ١٩٦٤ !

ثم ناولتنى ورقة فيها بعض اناشيد منسوخة بالآلة الكاتبة ، وقالت لى :

ـ ستحفظ امامى هذه الاناشيد ،

وسترينك على التقاطه ، كما ادربك على رقصات البرنامج .

وشرعت تدربنى ، وكانت استجابتى سريعة ، ولم البث ان احسست نشطة طارئة تسرى بين جوانحى ، وكأننى عدت صبيا فى العاشرة ، استقبل لهو الطفولة وعبثها ، دون رقيب .

والحق اننى لم اعد افكر الا فى اللحظة التى احياها مع « فيفى » ، غافلا عن كل شيء عداها . لا ماضي يثقل على بتقاليده ، ولا مستقبل يزعجنى باشباحه الغامضة . ليس ثمة الا بهجة تنبعث من طلعة رائدتى ، وصفاء يترقرق من لمح عينيها الخضراوين .

وزعق « المجهار » مرة اخرى يعلن بدء العرض ، فعلت اصوات تترنم بالاناشيد وقد صاحبتها الحان جياشة . واحسست بيد « فيفى » تمسك بساعدى ، وتسير بى ، فأرخيت لها قيادى فى استسلام . . واحتوتنا الحفلة فيمن حوت من فرقة الفنانين ، وكانت الأنوار وهاجة تخطف البصر ، واستبانت اجهزة الاذاعة المرئية ضخمة متنوعة تلتقم الصور والاصوات فى شراهة .

ودرت مع « فيفى » نتراقص ونشترك فى الانشاد ، وكانت الاناشيد تتغنى بقرية « السلامية » وتمجد تطورها فى العهد الجديد ، وقد حفت بها انغام تتسرب فى اعماق النفوس ، فتثير فيها الحمية والنشوة .

قضيت الوقت ، وانا شبه ثمل ، اكاد افقد الوعى لما حولى ، لولا ان هذا الوجه النحاسي المصقول بعينيه الخضراوين الصافيتين ، كان يردنى الى اليقظة آنا بعد آن .

وانتهى العرض ، والتهبت الأكف بالتصفيق ، وعلت الحناجر بالهتاف . وخافتت الاضواء . وزعق « المجهار » يعلن الاستراحة ، ويدعو النظارة الى المقصف ، فمضينا اليه ، فاذا موائد مستطيلة ، جميلة التنسيق ، رصت عليها افانين من الشطائر والفطائر ، وشكول من الفاكهة والحلوى . فالتففنا حولها ، واصبنا من طعامها ، فى جو يسوده بشر وايناس .

وبرز امرؤ حاسر الراس ، انيق البزة ، على منصة فى صدر القاعة . فدوى التصفيق ، ومالت على « فيفى » تقول :

ـ انه العمدة . . .

والقى العمدة خطبة عامرة ، اجمل فيها ما احرزته القرية خلال عام من تقدم ونماء ، فلقيت خطبته ترحيبا و حفاوة .

وانفض الجمع .

وهمست « فيفى » تقول :

ـ والآن الا ترغب فى الخروج ، تنشد النزهة فى جو طاق ؟

ـ انا معك ، حيثما اردت .

وادبرنا عن الملعب ، نتوخى وجه الطريق . وما لبثنا ان ملنا عنه الى سكة جانبية تسايرها ترعة ، وعن يمينها وشمالها تترامى الحقول . وتناولنا الحديث فى شأن الحفل وما دار فيه . وكنا كلما اوغلنا فى السير بعدت عنا الضجة ، ورقت الاضواء ، وقل الكلام . . .

وازدادت الحلكة . . .

وملكنا صمت . .

وامتدت يدى الى جيبى ، انتقد منديلى ، فاذا نسيج مطرز يعلق بأصابعى . . . وبدت لى « الطاقية » فى مظهرها الساذج ، هدية « ستوتة » الى يوم الرحيل ، فى الزمن البعيد .

وتحدثها : فيفى ... فيفتنى .

— مايالها ؟

فرويت لها قصتها ، فتناولتها منى تفحصها ، وهى تقول :

— ما أنبل مشاعرك ! أتحتفظ بها طوال هذه السنين ؟

— انها تذكرنى بأيام طفولتى الهانئة ...

— أثر تاريخى لطيف .

وردت « الطاقية » الى ، وواصلت حديثها :

— مثل هذه « الطاقية » لم يعد له اليوم عندنا كبير شأن !

وتلاحقت الذكريات فى خاطرى ، وقلت لفتاتى :

— لم تذكرى لى كيف قضت أمك ؟ ومتى ؟

— يوم مولدى .

فهمهمت :

— ما أمرها ذكرى !

وطوانا الصمت ، ثم استأنفت الحديث فى نبرة محزونة ، أقول :

— الى عندك مطلب .

— ماذا تبغى ؟

— أن أزور قبرها ...

— فى مستطاعى أن أمضى بك الساعة اليه ان شئت ...

— الآن ؟

— ان مقبرة القرية غير بعيدة ، بيننا وبينها بعض خطوات ...

وأشارت بيدها الى خربة تغزوها الاعشاب اليابسة ، ويغشاها الظلام الموحش ، والسكون الكئيب . وقالت خافضة الصوت :

— انه المكان الوحيد الذى لم تنله بعد يد التجديد ...

وضربنا بأقدامنا صوب الخربة ... وقد تمشى فى جوانحى قلق غامض .

وبعد قليل سرنا ، حتى دنت الى اسماعنا صوت « المجهار » ينبىء بانتهاء الاستراحة واستئناف البرنامج ، فتوقفنا ، وقلت :

— لم يبق من وقت للزيارة ... نعود أدراجنا ...

— لايستأنفون العرض على الفور ... هناك فسحة من الوقت ... تتيح لنا ان نزور ...

وتراءت خلفنا أضواء الحفل تسطع وتتوهج ، وقويت الضجة فى صخب ، وامتلأ الجو بأنغام الموسيقى .

ولبثت لحظات أرجع البصر بين الخربة من أمام والحفل من وراء ، بين الظلمة الموحشة والاضواء الألاقة ، بين السكون المطبق والحركة الجياشة . ثم الفيتنى أمسك بيد صاحبتى وارتد بها نحو القرية ، وانبهنى صوت « فيفى » يقول :

— انتظر ... انتظر قليلا ...

— لم ؟

— شىء سقط منك .

— ماذا ؟

— لعله « الطاقية » ... انظر ...

وأشارت الى شىء أبيض ، يترنح على حافة الترعة ، تداعبه نسمات المساء .

وهبت ريح تحمل « الطاقية » وتلقى بها فى الماء .

ورأيتها تطفو بعض وقت ... ثم اختفت رويدا بين تموجات هينة رقاق .

وعجبت لامرى كيف أحجم عن انتشال « الطاقية » ؟ ...

لقد عرانى تبلد عجيب ، فلم أبد حراكا ...

ومات بناظرى عن الترعة ، أواصل السير ، ويدى فى يد صاحبتى ، متجهين الى « السلامية » الجديدة التى يغمرها فيض من حيوية ونور !